ولد واحد

يروح ويجيء، لا يهدأ ولا يفتر، ما إن يطفئ سيكارة حتى يشعل غيرها، ناحل طويل، على عينيه نظارة طبية بيضاء، تمنح ملامحه مزيداً من القلق والتوتر، في جيب قميصه قلم مذهب، لا تخلو ملامحه من أناقة هادئة، ولكنها تبدو مشتتة، على جبينه تتهدل غرة خرنوبية، ما يفتأ يرفعها بيده، أو يردها بهزة من رأسه.

في أحد المقاعد الجلدية العريضة رجل في الخمسين، هو وحده من يهتم به، يرقبه بعناية، ثمة آخرون، ولكنه هو وحده المهتم، يرتدي سروالاً أسود عريضاً فضفاضاً، وقميصاً أسود واسعاً، ويتمنطق بحزام أسود، وينتعل من غير جوارب حذاء جلدياً أسود له مقدمة مدببة، وقد كسر مؤخرة الحذاء وداس عليها، يرقبه باهتمام، وقد عقد يديه على إحدى ركبتيه.

بهو المشفى ممتلئ، ولكن أحداً لا يبالي بأحد.

- تفضل يا ولدي، اقعد بجواري.

يرمقه الشاب بنظرة استغراب، كأنه يراه أول مرة، يشعر نحوه بشيء من النفور، من شكله، أو من هيئته، أو من تدخله، يتردد، ثم بشيء من التأفف أو الاستسلام، يقعد إلى جواره.

يستل الشاب سيكارة من علبة تبغه الفاخرة، يقدمها إلى العجوز، يرد:

- شكراً يا ولدي، ما دعوتك لتقدم لي سيكارة، أنا دعوتك لأني أشفقت عليك من إفراطك في التدخين، ومن جورك على نفسك في هذا الرواح والمجيء.

يرد الشاب بمزيد من الضيق به وبمزيد من التوتر، كأنه يريد التخلص من ثرثرته:

- شكراً يا عم، أنا معتاد على هذا.

- ولكنك تحرق أعصابك، سلِّم أمرك لله.

يكاد يشتمه في سره، هو الذي نفر من أبيه وجده، جاء هذا العجوز الخرف ليعظه، يكاد يهم بالنهوض، ولكن العجوز يضع يده على فخذه، يستحثه على القعود، وهو يسأل:

- هل هذا هو المولود الأول؟

ينظر إلي يده الجعداء الخشنة، يكاد يقول له: أرجوك لا تلمسني، ولكنه يرد بشيء من الهدوء المصطنع، كأنه يسخر منه:

ـ لله الحمد، هذه هي البنت الثانية.

ويعلق العجوز بعفوية هادئة:

ـ الحمد لله، الحمد لله، هي أرزاق من الله يا ولدي، يبدو أنك لجأت إلى التصوير بالإيكو، ما يدريك، لعل الصورة غير صحيحة، والمولود يتخلق في أطوار، وعلى كل حال البنت رزق من الله، لا تحزن يا ولدي، أنت ما تزال شاباً وسيرزقك الله ببنين وبنات، المستقبل ما يزال أمامك، وعلى كل حال البنت كالصبي، المهم التربية الصالحة.

ـ ليست المشكلة عندي مشكلة صبي أو بنت، أنا لا يهمني هذا على الإطلاق، المشكلة عندي أني لا أريد المولود الثاني أياً كان، يكفيني ولد واحد، أياً كان، ذكراً أو أنثى.

ـ لا يا ولدي، أصلحك الله، ولد واحد لا يكفي، الولد الوحيد تربيته صعبة، وحياته صعبة، الولد يحتاج إلى إخوة وأخوات، أنت لا تعرف، أنا وحيد لوالديَّ، في الصغر كنت أتمنى الأخ، لا أعرف مع من

ألعب، وفي الكبر أحتاج إلى أخ يعينني، والآن بناتي يملأن حياتي، عندي كثير من الأصدقاء، أيام الشباب كنا نلتقي كل يوم، وجدت فيهم البديل من الأخ، ولكن الآن كل واحد مشغول بنفسه وبيته وأولاده، ما عدنا نلتقي، ولذلك جنة الدنيا هي الأولاد.

يدير الشاب وجهه إلى الجهة الأخرى، في اصطناع مفتعل، ينفث دخان السيكارة، بعيداً عن وجه الرجل العجوز، ولكنه في الواقع لا يريد أن يراه ولا أن يسمعه.

العجوز يضع يده الخشنة على فخذه ويقول له:

- لا تلتفت عني يا ولدي، دخان السيكارة لا يزعجني، بل يسرني كثيراً، أنا أحب رائحتها، أنا كنت مثلك أدخن كثيراً، ثم أقلعت عن التدخين، يبدو أن لديك إخوة كثيرين، لذلك تكره الأولاد.

يلتفت الشاب إليه، ينظر إلى يده، كأنه يقول له ارفع يدك، أرجوك لا تلمسني، ثم يرد بامتعاض:

- لست معقداً، وليس عندي كثير من الإخوة، نحن ثلاثة.

يصمت، كأنه لا يريد الكلام، ولكنه ما يلبث أن يسأله بشيء من السخرية:

ـ وأنت يا عم، هل تنتظر زوجة ابنك كي تضع؟

ـ أنا مثلك يا ولدي، أنتظر مولوداً أيضاً، ولا أعرف أذكر هو أم أنثى، لم ألجأ مثلك إلى التصوير بالإيكو، لا بخلاً ولا توفيراً، الرزق كثير ولله الحمد، ولا لأني لا أصدق، أو لا أومن بالعلم، على العكس، أنا أصدق هذه الأجهزة، من أسبوع شكوت من ألم في الخاصرة، خشيت أن يكون التهاباً في الكلية، أو حصى، ذهبت إلى الطبيب، ذهبت إلى أشهر طبيب في البلد عنده أحدث جهاز تصوير، الإيمان بالله يا ولدي لا يمنع من التداوي والأخذ بالأسباب، بل يحض عليه، واستلقيت على السرير، ولما قال لي: الكلى والمثانة والبروتستاتة كلها عندك سليمة، إنما هو مجرد التهاب في العضلات والأغشية، عندما قال لي هذا نهضت كالأسد، المهم يا ولدي، أنا مثلك أنتظر المولود، ولكن لم ألجأ إلى التصوير بالإيكو، لا يهمني إن كان المولود ذكراً أو أنثى، أردت أن أحتفظ لنفسي بمتعة المفاجأة.

ضحك في سره، ضحك كثيراً من العجوز، أية مفاجأة وأية متعة، هي متعة الجهلة والعجائز، هي كإيمان العجائز، ذكَّره بجده العجوز الذي كان يفاخر دائماً بأنه بلغ التسعين ولم يزر طبيباً ولم يشرب حبة دواء، وبشيء من السخرية، لا الاندماج سأله:

ـ كم ولداً عندك يا عم؟

ـ خمس.

ـ من زوجة واحدة.

ـ نعم يا ولدي، بارك الله فيها وفي الرحم الذي حملها وفي الرحم الذي تحمله، هي زوجة وأم.

ـ كلهم ذكور؟

ـ لا، كلهن إناث، ولا حظ أني قلت كلهن، أنا أحب هذه النون، كما يلفظها الأستاذ المثقف.

ـ وماذا تعمل يا عم؟

ـ بائع متجول، عندي عربة، أدفعها بيدي، أبيع عليها ما ينتجه الموسم، الخيار والبطيخ في الصيف، والقنبيط والسبانخ في الشتاء، والحمد لله، أحياناً تضايقني شرطة البلدية، تصادر الميزان، أو تأخذ العربة كلها بحملها، لكن ربك يعوض.

ـ خمس بنات؟ وأنت وأمهم؟

ـ نعم، وعندي أمي وهي عجوز في السبعين.

ـ وكيف تطعمهم؟

ـ أنا لا أطعمهم ولا أكسوهم، لهم رزق عند الله يأتيهم.

أحس بالغضب هذه المرة، أخذته الحمية، ما عاد يريد مفارقة العجوز، هو وأمثاله هم سبب الفقر والتخلف

والجهل، من المؤكد أن بناته يعانين من سوء التغذية، وأنهن لن يتابعن دراستهن في الجامعة، بل لن يصلن إلى المرحلة الثانوية، سيدفعهن إلى الزواج المبكر، لا بد من مناقشته والحوار معه، وإن كان الأوان قد فات، ولكن لا بد، يلتفت، يستدير إليه بكل جسمه، يتوجه إليه بوجهه وصوته وعينيه:

ـ ولكن يا عم، تخيل لو أن كل أب مثلك أنجب ستة أولاد خلال عشرة أعوام لامتلأ العالم بالسكان، وما عادت الأرض تتسع، رؤوس الجبال نفسها لن تتسع لساكن، حتى لو أرادوا شرب ماء البحر لما كفاهم، الهواء وحده عندئذ لن يكفي، والدول والحكومات عندئذ لا يمكنها تأمين المدارس ولا المنازل ولا المستشفيات ولا السيارات.

العجوز يضحك، يضحك بهدوء، ثم يتكلم:

ـ وهل نسيت يا ولدي الموتى والقتلى والحروب والمعارك والأمراض والأوبئة والزلازل والكوارث، حادث طائرة واحدة يموت فيها أكثر من مئة وستين راكباً، قطار ينقلب فيموت فيه خمسمئة راكب، ولا تنس يا ولدي الدول والحكومات، هي نفسها تحتاج إلى مزيد من السكان لتجندهم وليعملوا في خدمتها، وكلما زاد عدد السكان زادت خدمات بعضهم لبعضهم وزادت فرص العمل.

- ولكن، تخيل يا عم أنك تملك قطعة أرض مساحتها هكتار واحد، وعندك ثلاثة أولاد، يمكن أن تكفيكم، ولكن تخيل لو كان عندك ستة أو تسعة، هل يمكن أن تكفيكم قطعة الأرض نفسها؟

يضحك العجوز، يرد:

- وهل نسيت يا ولدي الأسمدة وتحسين البذار والتهجين، كيس الحنطة كان ينتج ثلاثة أكياس، اليوم ينتج عشرة أكياس، البقرة البلدية كانت تدر في اليوم عشرين كيلو من الحليب، البقرة المهجنة تدر اليوم ثلاثة أضعاف.

يضحك في سره، يضحك كثيراً، العجوز يظن نفسه مثقفاً، يظن أنه أفحمه، الحوار معه ممتع، يكاد ينسيه ما هو فيه، لا بد من محاورته، ولا بد من أخذه باللين، يقول له:

- ولكن يا عم، أنا متفق معك، تستطيع أنت أن تنفق على عشرة أولاد.

- نعم، أستطيع أن أنفق على مئة لا عشرة، لأنني لا أنفق من مالي، إنما أنا أنفق من رزقهم هم الذي ساقه الله إلي لأنفقه عليهم.

- لا بأس، أنا متفق معك، ولكن كم ستشقى؟ وكم ستتعب؟

ـ الشقاء من أجل الأولاد حلو، والتعب مطلوب، وإلا فلماذا خلقنا الله، لنعمل أم لنقعد كسالى؟ألم تسمع قوله تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا».؟!

ـ ولكن ألا تلاحظ ياعم أن أولاد الفقراء يزدادون فقراً ويعيشون في بؤس، لأنهم كثيرون، في حين يعيش أبناء الأغنياء أرقى حياة، ويزدادون غنى لأن أولادهم قليلون؟! الأغنياء يكتفون بولد أو ولدين، أما الفقراء فلا يكفيهم عشرة.

يسكت العجوز، يطرق، ويصك سمعه صوت حاد كالشفرات يحز في العروق، عواء مكابح وسحج عجلات وتصادم سيارتين.

يلتفت إلى الشاب كالمنتصر ليقول له:

ـ هل سمعت؟ كل يوم يموت ثلاثة أو أربعة من أولاد الفقراء تحت عجلات سيارات أولاد الأغنياء، لا يكفي الغني أنه يركب سيارة، بل يترك السيارة لولده الوحيد كما قلت ليدوس أولاد الفقراء، هل سمعت؟.

ـ اطمئن يا عم، هو اصطدام سيارتين لا أكثر، مجرد حديد بحديد.

ـ أود أن أسألك يا ولدي، ماذا تعمل أنت؟

ـ أنا مهندس وزوجتي مهندسة، راتبي وراتبها معاً لا يكاد يكفينا.

وتدخل ممرضة إلى البهو منادية:

ـ السيد جورج.

ويسرع إلى لقائها شاب في الثلاثين من عمره، تفاجئه الممرضة بقولها:

ـ مبارك لك، وضعت زوجتك أربعة توائم.

العجوز يضع يده على فخذ الشاب إلى جواره ويهتف:

ـ هل سمعت، هذه حالة نادرة، أنا أعرف، الآن ستكرمه الدولة، ستمنحه هو وزوجته راتباً خاصاً للتوائم، وستنشر الصحف صوره، صدقني أنا أتمنى أن تضع زوجتي أربعة توائم.

يضحك، يضحك هذه المرة من أعماقه، يشعر أنه بدأ يحب هذا العجوز، ليس متأكداً أهو الحب أم الإشفاق على عفويته وبراءته، المهم أنه ازداد انجذاباً إليه.

مرة أخرى يضع يده على فخذ الشاب، يميل عليه ليهمس:

ـ انظر إلى هذا الرجل الخارج من داخل المستشفى مع زوجته، تأمل ملامحه، لاحظ الاكتئاب على وجهه، أنا أعرفه، تجاوز الأربعين، ولم يرزق هو وزوجته حتى الآن بولد، لعلهما أنفقا منذ عشر سنين حتى الآن مئات الألوف، ولم يرزقا بولد، صدقني لو كان الولد يباع ويشرى لاشترياه بالملايين.

يعلق الشاب ساخراً:

ـ أنا أعطيهما ابنتي من غير مقابل.

ـ لا، لا تقل هذا يا ولدي، كان الله في عونهما، واحد يرزق بعشرة، والآخر لا يرزق ولو بولد، وثالث يضطر زوجته للإجهاض، وولد أحد الأغنياء يدوس بسيارته أولاد الفقراء ولا يبالي، لأنه قادر على دفع الثمن من أموال أبيه.

يسأله محاولاً إحراجه:

ـ أراك يا عم تحب الأولاد؟

ـ نعم، أنا أحب الأولاد كثيراً لأني أحب بلدي، أما سمعت المثل: رائحة الولد من رائحة البلد، الذي يحب بلده يحب أولاده، والذي يحب أولاده يحب بلده.

ـ وما ذا كنت ستفعل لو أنك لم ترزق مثلاً بولد؟!

ـ أحاول العلاج، وإذا لم أرزق بولد سلمت أمري إلى الله ورضيت، لن أفعل أي شيء.

يصمت قليلاً ثم يضيف:

ـ ولا أنسى أولاد أخي، أولاد أختي، أولاد الجيران، أنا أحبهم كلهم، كلهم أولادي.

من باب المشفى الخارجي يدخل شابان في زي عمال المطاعم يحمل كل منهما صينية كبيرة على رأسه، كل واحدة من الصينيتين مغطاة بورق ملون فاخر، يعبران البهو ويمضيان نحو الداخل، الشاب يتساءل مستنكراً:

- ما هذا يا عم؟! الولائم في داخل المشفى؟

- هذا يا ولدي ما كان يسمى صفرة مريم.

- هذه أول مرة أسمع بها، ماذا تعني؟

- السيدة مريم عندما وضعت السيد المسيح عليه السلام تحت شجرة النخيل أكرمها الله بالرطب، وهو التمر الذي فيه فوائد كثيرة، ولاسيما للنفساء، واليوم يكرم الرجل زوجته بعد الولادة بمائدة لها ولأهلها وأهله تعبيراً عن الفرح والسرور، فيها ما لذ وطاب من الفواكه.

- ولماذا أسموها صفرة، ولم يسموها مائدة؟

يصمت العجوز قليلاً، ثم يتكلم:

- نحن يا ولدي نقول عن طعام الفطور الخفيف «كسر الصفرة»، وأظن يا ولدي أن المقصود بها المادة الصفراء التي تفرزها المرارة في المعدة أو الأمعاء، أنا لا أعرف بالضبط، وهي لهضم الطعام، وفي الصباح تكون المعدة فارغة، وتكون هذه الصفراء ثقيلة،

ولذلك لا بد من كسرها، أي تخفيف حدتها بقليل من الطعام، هذا على كل حال مبلغ علمي، لا أعرف بالضبط المقصود بالصفرة.

- ولكن يا عم أشم روائح لحم وسمن وبهارات؟ هذا يقتل الصفراء لا يكسرها.

يضحك العجوز، يضحك كثيراً، يضع يده الخشنة على فخذ الشاب، ثم يسأله:

- ألا تعرف عش البلبل أو اللحم بالعجين؟ألست من حلب؟

- أنا ابن حلب، ولكن لا أحب هذه العادات القديمة ولا الأطعمة القديمة.

- وزوجتك؟!

- زوجتي من بلغاريا.

- آه، الآن فهمت، المرأة يا ولدي بعد أن تضع تكون قد أرهقت فلا بد أن تعوض ما نزفت، ولذلك يسخن السمن العربي الخالص، أي سمن الغنم لا السمن النباتي المصنع، ثم تسقى به، أو تصنع لها خاصة الكبة النيئة، أي القليل من البرغل الناعم الممزوج مع الهبرة المدقوقة، أي لحم الضأن الأحمر، هذا ينفعها كثيراً، أما عش البلبل فهو أقراص صغيرة من العجين

المرقوق بالسمن يبسط فوقه اللحم الناعم الممزوج بالبهارات والتوابل ودبس الرمان وفوقه حبات الصنوبر، وسُمِّيَ عش البلبل لأنه صغير ومدور واللحم فوقه يشبه عش البلبل وهو شهي جداً، أما اللحم بالعجين فهو أقراص كبيرة نسبياً، هي أصغر من الرغيف، يبسط فوقها اللحم الناعم المفروم مع البصل، وقد يفرم مع اللحم الناعم حبات البندورة وقرون الفليفلة الحمراء والخضراء، وهذا النوع الأخير يوصف بأنه: «العنتابي» نسبة إلى بلدة «عينتاب» في جنوب تركيا، أنت تعرف أن الطعام في حلب متأثر كثيراً بالمطبخ التركي منذ أيام العثمانيين

يقاطعه الشاب متذمراً:

- هذه العادات متى سننساها؟

العجوز يرد بهدوء:

- أنا معك، هناك عادات كثيرة يجب أن ننساها لأنها ثقيلة ومملة، ولكن هناك عادات جميلة، ولاسيما العادات التي فيها تكريم واحترام للإنسان، المرأة تحمل تسعة أشهر وتتعب في الوضع أليس من الضروري أن نكرمها، أم هل ننسى كل شيء ونأخذ العادات الأجنبية؟! واسمح لي قبل أن أنسى أن أقول إن اللحم العجين أو عش البلبل يقدم دائماً في

المناسبات كالعودة من الحج وفي الأعراس والولائم الرسمية ولا بد إلى جواره من اللبن الرائب أو الخاثر المخلوط بقليل من الماء مع الملح ونحن نسميه في حلب «العيران»، هل تعرفه؟ أم أن زوجتك البلغارية أنستك كل شيء؟

يحس بالاستياء، يشعل سيكارة جديدة، ينفث دخانها في وجه العجوز، ثم يقول:

ـ أنت أنسيتني كل شيء، حتى إني نسيت أن زوجتي في الداخل تعاني آلام الوضع، ولذلك اسمح لي أذهب لأطمئن عليها.

ويهم بالنهوض، فيضع العجوز يده على فخذه وهو يقول له مشيراً إلى ممرضة قادمة من داخل المشفى:

ـ اقعد انتظر، لنرى ما عند هذه الممرضة.

وتدخل الممرضة، لتنادي:

ـ أبو القاسم

وينهض العجوز:

ـ نعم، يا بنتي؟!

ـ مبارك يا عم، رزقت ببنت.

ـ وكيف الأم يا بنتي؟.

ـ الولادة طبيعية، والأم بخير.

العجوز يعانق الشاب، يقبله، الدموع تطفر من عينيه، يصيح بكل من في البهو:

ـ سأحضر لكم صندوق مرطبات.

ويندفع إلى خارج المشفى.

الشاب ينهض، يروح ويجيء، ينفث الدخان، وهو يضحك في سره، لا يكاد يصدق وجود مثل ذلك العجوز، هل هو واقع أم خيال؟ هل يعيش في القرن الحادي والعشرين مثل ذلك الرجل؟! ولكن كرم منه حقيقة أن يبلَّ حلوق الظامئين المنتظرين بشيء من المرطبات.

ويدوي في الخارج صوت زاعق، يصخ الأسماع، مكابح تزعق، وأصوات تعلو، من المؤكد أنه ليس مجرد تصادم سيارتين، لا بد أن يكون ثمة جسد بشري صدمه حديد سيارة مسرعة، ويبدو أن ثمة صندوقاً مملوءاً قد سقط على الأرض، وتناثرت منه علب المثلجات، لترتمي على الإسفلت الأسود، وتذوب المثلجات تحت الشمس اللاهبة.